المرأة والدين

تدينت المرأة وامتازت بالتدين والتقوى من قديم الزمان واشتهرت بكثرة الورع وصدق العبادة وحسن الايمان . وقد نعت الانسانية بتمسكها بالدين وموازرتها للمشترعين خطباً ثميناً يفوق الوصف واضافت العالم بمواطنها الدينية وغيرتها المذهبية افادات جليلة يفوتها العرف . ووفهمت ارادة الله كما امت وايدت مشيئته مثلما تليها تدربت واشبعت النفس احدى مفزياتها وكمتها اولى احتياجاً ولم تدع الرجل وحده يتحمل عناء الاشتراع ويقاسي مضض المقاومة والاضطهاد ويتعب بالتبشير والارشاد بل عاونته في كل ذلك بامور سطرها التاريخ وحقها ان تكتب بماء الذهب . وكانت ولا تزال تؤيد بلطفها مكانة العقائد وتلذف بايمانها شدة الجحود . ولكم من مذهب ما عاش لولاها ومن عقيدة دونها لم تكن

قالت مجلة المقتطف نقلاً عن الامير علي احد علماء الهند وقد اثبتها المشاهير — ما بحث احد عن اصل الاديان الاورأى امرأة عند ينبوع كل ديانة روحية ثبت الحياة في ذويها

وقد عرف الباحثون هذا الامر وتأكدوه ولم يبق مجال للريب فيه وصفحات التاريخ مفتوحة للباحثين وهي وان قصرت احياناً عن ذكر ذلك تصريحاً واوجزت ايضاحاً فكادت تنبس الحقائق على بعض مستقاميها اياها وتتقاص ابامهم ظلال عالمها فيتوهمون خلاف ما يكون الا انها معوضة تلميحاً ومهيبة دلائل والتلميح والاستدلال كثيراً ما يغنيان عن التصريح والتبيان

فقد استدللنا على اهمية تأثير المرأة في الدين وعظم خدمتها له عند اقدمين من تأليههم لها واتخاذهم اياها معبودة واقامتها كلفاً بالمعبود واعتبارها نبية ووسيطاً

بين الالهة والبشر . فضلاً عما رواه بصريح العبارة بعض المؤرخين . فكان البابليون والاشوريون واليونان والرومان واهالي مصر وفينيقيا وغيرهم يعبدون الالاهات كالآلهة ويقيمون لها التماثيل ويشيدون الهياكل ويخصونها بكهنة وكاهنات . وطالما سجد الاسيريون لسميراميس الشهيرة وهي لم تكن غير ملكة اشورية عظيمة الموها باسباغ متعددة كانت اوانا وايستار وعشتروت وانتاراتا وقد اثبت العلامة رمساي انه كان للنساء في آسيا الصغرى المقام الاول في امر الدين كما روى العلامة الدبس في تاريخ سوريا . والفينيقيون في ايام مجدهم قد اعتبروا الالاهات «الالهة» قنوماً واحداً بهيئتين مختلفتين وكان كهنتهم يلبسون في الاعياد ملابس النساء ويخضبون وجوههم بالحمرة ويزججون حواجبهم ويكحلون عيونهم ويمرون ايديهم الى الكتف ويغنون ويرقصون . وكثير من الهياكل شادتها النساء وبعضها اعظم مما شاده منها الرجال كالهيكل الذي شادته استراتونيكا ملكة اشور في هيارابوليس ورآه لوسيان الروماني في القرن الثاني بعد المسيح اعظم هياكل زمانه . ولا يخفى ما في هذا العمل من تعزيز مظاهر الدين وتوطيد اركانها الحسية المنظورة كما لا يخفى ما فيه من النفع لاقوام ما ارتقت مداركهم الدينية لاكثر منه

هذه لمحة موجزة من تأثير المرأة السالفة في الدين البائد وخدمتها له وحسبها منه الكهانة فقط فضلاً عن اتاله . اما تأثيرها في الدين الحالي واشهر انواعه اربعة الموسوي والبوذي والعيسوي والمحمدي فربما لم تتعذر فقط بموازرة المشترعين وتفهم الشخصي بل اتصلت مباشرة الى العموميات فتركت فيها خدماً جليلة تذكرها بالشكر على مر الدهر

ولموسى الكليم في مصر والاسرائيليون فيها مضطهدون فكاد يتناوله امر فرعون بقتل اطفالهم لو لم تكن امه يوكابد ذكية عاقلة صنعت له وعاء وضعته

فيه واخفته بين الحيزران على ضفة النيل فحرسته شقيقته وجاءت ترموتيس ابنة فرعون لتغتسل فرأته واخذته وبواسطة اخته مريم سلمته لوالدته لترضعه دون ان تعرفها من تكون له فارضعته مع الحليب حب الاله الحق والغيرة على بني قبيلته وحفظ التقاليد العبرانية حتى اذا كبر يظل اسرائيلياً بنفسه ولو صار وزيراً للمصريين ولما كبر موسى ورأته ترموتيس مستعداً بفطرته للتعلم علمته عند الكهنة علوم قومها وكانت ارقى علوم ذاك الزمان وصانته من شر حسدهم من ذكائه وخوفهم من مستقبله والحاس الملك بسمايتهم خوفاً منه . وبعد فتكه المصري ضربه العبراني هرب من مصر الى ارض مدين فاز وجه كاهنها رعوئيل كريته سفورة فكانت عوناً له في كل اعماله وخلصته من القتل عند ماهم به الملاك في الطريق وهو آت لخلاص اسرائيل كما الهمه الله فبادرت حالاً الى ختن ولدها العازار بصوانة لئلا يذهب الوالد بحريدة اهماله ختانة الولد . وبعد التحرر من ربقة المصريين ذهب الكاهن رعوئيل لزيارة سفورة فراى زوجها متعباً بالقضاء للشعب فاشار عليه باقامة قضاة له من العقلاء والفضلاء . واختلفت الاقوال في اخته مريم فقال بعضهم انها تزوجت وزوجها حور كان عوناً لاخويها موسى وهارون على غلبة العمالقة في الحرب فان صح هذا القول او لم يصح فلا شبهة في انها ظلت موآزرة له الى اخر ايامها في اشغاله العمومية بدليل ما رواه يوسيفوس عن احتفاء الشعب الباهر بدفنها في قادش وانفاقه على الاحتفال من ماله العمومي ورثائه لها شهراً وبقاء السكان يدلون على قبرها الى ايام اوسابيوس . ولما الهم الله موسى ان يقيم مظلة عظيمة ليعبده الشعب تحتها بناء على ان المنظور اكثر تأثيراً في النفس من غير المنظور كانت النساء تأتيه باسورتهن وخواتمهن وقلائدهن وكل ما عندهن من الحلي والجلود الثمينة والارجوان وكل حاذقة تغزل بيديها القماش اللازم

وبوذه الحكيم الهندي المنسوبة شريعته اليه وعدد اتباعها اليوم نحو من خمسمائة مليون انسان ذاق لذة الطعام الذي يعد الصيام الطويل من بدقاة فروعه فاستساغ اللبن والعسل ولما انتشرت تعاليمه وتهافت الهنود على اعتناق مذهبه جاء في شريعته كونفوشيوس يشجع جميع النساء ليتلمذن لفقيها كجمعيته من رجال ونساء على تعاليمها واباح بذلك جنبا الى جنب مع الرجل ادارتها ايضا وعندما قوي مذهبه فاكرمت ملكة الايطالي اليه وقد اضطهد وطارد انصاره وهرب بالاضطهاد وخربا بيت المرأة عن ولاء حتى ان الملك قتل احد ضباط ابيه لانها اوقدت مصباحا اكراما ليوذه . وكتب الحنوط مؤلفة من مآثر الامرأة في الدين اليوناني والديانة البرهمية كما ملأ الكتب الصينية منها في مذهب كونفوشيوس والفارسية في مذهب زردشت

وبسيح المسيح مؤسس المسيحية خدمته المرأة خدمات جلى وانفقت على خدماته من مالها الخاص ودهنت تدهينا طيبا تكريما لوفاته في بيتها وآوته ولازمته حتى في اشد ايام نكبته عندما فزعه الرجال خوفا من شر الكهنة والفريسيين وتبعته الى جبل الصليب تنوح عليه بلا جزع وشيعته الى القبر واعدت جثته الحنوط والطيب واكتشفت قيامته وبشرت الرسل بها وفازت بشرف الترائي لها قبل الرجل كما يصرح الانجيل عن مريم المجدلية ومريم ام يعقوب ويونا امراة كوزي هيرودس ملك سامرة وسوسنة وغيرهما من رفيقات السيد على الاخص

والرسل والمبشرون الذين نشروا الديانة المسيحية في العالم استفادوا من المرأة كثيرا لاسيما بتحببها لهم عن اعين المضطهدين واعتناقها الايمان بسهولة وادخاله بين ذويها بكل ارتياح وتحملها عناء الاضطهاد معهم واستشهادها في سبيل الاعتقاد معهم وتشيطها الرجل بالقدوة والتحريض . وفي تاريخ انتشار

المسيحية بين الامم ادلة واضحة على فضل المرأة في الدين وخدمتها له وتأثيرها العظيم

لما اشتد الاضطهاد التلاميذ ذهبت مريم المجدلية الى رومية وشكت الى طيباريوس قيصر صلب يسوع فلذاً وعدواً فاستحضر بيلاطس ورؤساء الكهنة وجازاهم بالقتل ثم استصدرت منه امراً قاضياً بالموت على كل من يريد اضطهاد المسيحيين وهكذا كف اليهود عن الاضطهاد واستب السلام لكنائس اليهودية والسامرة والجليل وصار يزداد عدد المؤمنين . كل ذلك بفضل سعي مريم وهو من مؤيدات المسيحية ومثبتات اركانها كما لا يخفى فضلاً عما تلا من سعي النساء لهذا الامر في ما بعد

فاول من اعتنق دين المسيح في مكدونية على عهد بولس الرسول ليديا بياعة الارجوان : ولما صار للمسيحيين دولة رسمية يعتمدون عليها فتصونهم من المضطهدين وتؤيدهم وتعززهم الاعلى عهد قسطنطين الكبير ملك الرومانيين نجل الملكة هيلانة التي سعت جهدها لنشر المسيحية وصيانة اتباعها من الاضطهاد واكتشفت الصليب في اورشليم واهميته معروفة عند الارثوذكس . والكاثوليك وكانت مرغبة لابنها في النصر وغيورة جداً على تأييد الدين وتعزيزه حتى اعتبرتها الكنيسة قديسة وهي اول ملكة نصرانية نالت تمة التطويب واول من اعتمد من نسل ملوك الفاليين اجداد الفرنساويين طفل ولدته كلوتيلدا قرينة الملك كلوفس وهي التي بثت في قرينها الوثني روح المسيحية وحثته بالاقناع على اعتناقها والامر بنصر الشعب كله حتى حبوها بدل في مضاف القديسات ولما تفاقم شر الخلاف بين المسيحيين بخصوص تكريم الايقونات والصليب وبقايا القديسين . تداركت الامبراطورة ملكة الروم وعقدت بعنايتها مجمعاً عظيماً في مدينة نيقية اشترك فيه البابا والبطاركة الاربعة وايدت وجوب التكريم وبما ان نيران هذا الشر لم تنطفئ

بقرار هذا المجمع بل ظلت تتقعد الى ايام الملكة تاودورة ارملة تاوفيلوس قيصر التي حكمت بالنيابة عن ابنها فاعتمت باطفالها واستصلحها بمناجها ودانها وخلصت الكنيسة من شرها الوخيم وهي التي نصرت الصنالبة اجداد البولونيين على عبدها وبواسطتها ايضاً كما تصرت وقتئذ شقيقة برغوندس ملك البلغار وكانت اسيرة عندها فهذبتها تحررت وعادت الى بلادها علمت لخاها الدين المسيحي وحببته اليه ولم تنفك عن تحريضه على اعتناقه حتى وافقته ظريف فاعتنقه وحمل شعبه على الاقتداء به والدور مندوبون تحدروا على عهدملكهم رواه الذي تصر عندما اقترن بالامبراطورة ابنة الملك شارل الفرنساوي والملكة اولغا الروسية اول من اعتمد من امراء الروس وامبراتهم واول قديسة دون اسمها تاريخ كنيستهم فانها سارت الى القسطنطينية واعتمدت في كنيسة اجيا صوفيا العظيمة وحاولت جدها تصير الروسيين وجعل المسيحية مذهب الدولة ولم تفلح سوى انها عززت المسيحيين وكرمتهم وهيأت شعبها لقبول مذهبهم حتى اذا اراد ذلك حفيدها الملك فلاديمير بعد ما اعتمد حيث اعتمدت واقترن بالاميرة حفيدة شقيقة ملك الروم كان الاقبال وافراً والتصر بالغ الحد. والصينيون اشرقت عليهم انوار الانجيل من زمان قديم ولكنها لم تنتشر بينهم كثيراً لموانع عارضة ولم يهنأ عيش المتنصرين منهم قبل اليوم الا عندما انتصرت ملكتهم قبل نهاية القرن التاسع عشر فامسح والهوتنتوت البرابرة سكان افريقيا الجنوبية عندما استعبدهم المهاجرون الدانركيون وحالوا دون وصول المبشرين اليهم ليخلو لهم البلد بتسخيرهم واسترقاقهم وبعد ان وصلوا رغماً عنهم اعدموهم مدة خمسين سنة لم يخلوا اي الهوتنتوت من عجوز بقيت محافظة على نسخة من الانجيل اخذاها من جورج سنيدت المبشر الجرماني . ولما كان المبشر الانكليزي موفات سار للتبشير في بلاد ناماكوا في افريقيا الجنوبية كانت النساء تأتيه بالبن للشرب

حالما يصل البيت ليرتوي وكان مرة يمظ في قورومان فتوقفت النساء عن اتمام حلب البقر والنعاج ووقفن مصغيات وبايديهن آنية الحليب . ولما انتهى وجلس ليستريح ويأكل عاد الناس يطلبون موعظة ثانية فاستمهلهم نصف ساعة لانه جائع فاسرعت احدى نساء سيد القبيلة واتته حالاً بكاس لبن ليقوى على التكلم كثيراً كما قالت له . وامثال هذه الحوادث كثيرة في التاريخ المسيحي فليتأمل المنصفون

ومحمد الرسول صاحب الشريعة الاسلامية تغنه المرأة غناً جزيلا فكان يتاجر بمالها قبل الرسالة فيستفيد مالاً واختباراً وبعدها كانت عوناً له في مهماتها وقدمساعدته على اظهارها واذاعتها واعتمد عليها في نشرها وقال اتوه – خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء – وهو يريد زوجته عائشة لما كان لها من العلم والفضل والنفوذ والتأثير . وقد قال الامير علي – لولا المرأة ما صار الاسلام قوة حية : فانه قبلما عرف النبي حقيقة ما دعي اليه لما كان مرتاباً في حقيقة الاصوات التي كانت تناديه هل هي من الله او من سواه – لما كان في حالة اليأس والقنوط في ذلك الحين بادرت اليه زوجته خديجة التي كان يحبها ويكرمها فطيبت قلبه وشددت عزائمه . ثم لما قاوم اعتصاب ذويه عليه وبغضهم له وقفت بجانبه هذه المرأة الفاضلة ام المؤمنين وشاركته في السراء والضراء بل كانت اول من آمن به حين هجره كل احد . وكانت فاطمة ابنة النبي تجمع الصحابة والانصار رجالاً ونساء في بيتها او في المسجد وتقوم فيهم خطيبة بالوعظ والانذار ولا يزال كثير من مواعظها محفوظاً حتى اليوم وفيه ما يعود بالفخر وكانت نساء بني امية تتقاطر الى المساجد ليسمعن خطب الخلفاء والعلماء ويتعلمن الفقه والتفسير ويعلمن اولادهن : ومن يراجع تاريخ الفتوحات الاسلامية

المؤيدة لعز الاسلام يرى المرأة اثارا مشكورة افادت المذهب المحمدي افادات مذكورة . هذا فضلا عن خدمتها للرسول في حياته خدمات مأثورة

وبعد قتل الحاكم بامر الله ولي الدروز الاعظم تولت شؤون قومه اخته ست الملك الى ان بلغ ابنه سن الرشد وكانت ذكية عاقلة حازمة افادت مذهبها افادات ايدته الى اليوم

ولو شئنا تعداد اسماء الالاهات ونحصي عدد الكاهنات والنبيات ونذكر بالتفصيل كل الشهيدات والقديسات والوليات عند كل الامم قديمها وحديثها لضاق بنا المقام مهما فسح واحتجنا الى وقت اخر وصفحات لا تحصى . هذا اذا كان ذلك بالامكان بيد انه مستحيل

* * *

كلمة الى الحسناء

للمرة الاولى تخطر الحسناء في انحاء الشرق لتتفقد احوال بناته وتسال من فيه عن ذوات القناع

للمرة الاولى تمسح حواء الشرقية دمعة الذل واليأس وترفع انظارها الى العالم المضطرب فتراه عيونا شاخصة اليها ثم يرنو بطرف كسير كمن يستجير ويسترحم فتدهش من رؤيتها هذه الحال لعلمها انها لا تستطيع ان تبدي شيئا او تأتي امرا بمساعدته وهو عالم بقدرتها مقدر قوتها واستطاعتها .

اي ايتها الحسناء ان فتيات بلادنا اللواتي اخلق عليهن باب التحجب والتستر ليلتهي في نفوسهن بذرة التهامل والخمول او ليدفعهن الى حب التقليد الاعمى . سوف ينظرن من وراء النوافذ الى اشعتك الباهرة واشراقك الزاهي فتدب الحرارة وتلمس